

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث عمر -رضي الله عنه- حديث جبريل ؟

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زلنا نتحدث عن سؤالات جبريل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((... ورسله، واليوم الآخر، وتومن بالقدر خيره وشره)).

يعني: أن الله -عز وجل- اصطفى من عباده من البشر رجالاً ذكوراً، أنزل عليهم وحيه، وأرسلهم إلى الخلق لدعوتهم إلى التوحيد والإيمان، وأنزل عليهم الشرائع، ومنهم من أرسله إلى قوم كفار وهم الرسل، ومنهم من بعثه يجدد شريعة كانت قبله، وهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وكل رسول فهونبي، وقد يكوننبياً يوحى إليه، ولكنه ليس بمرسل.

وهو لاء الرسل كثُر، وقد جاء في حديث لأبي ذر في إسناده بعض الضعف- عدد الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وعدد الأنبياء^(١).

فمن بهؤلاء الرسل جميعاً، ومن كفر بوحدة منهم فكأنما كفر بكلهم؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَمَنْ يَكْفُرُ**
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتْبِهِ وَرَسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦].

قوله: ((وال يوم الآخر)) يعني: يوم القيمة، والبعث بعد الموت، وقيل له: اليوم الآخر ربما لأنه لا ليل بعده، أو لأنه اليوم الآخر يعني: أن الدنيا عاجلة وقريبة، والآخرة مستأخراً فهو يوم آخر؛ لأنه يأتي بعد الحياة الدنيا.

فيؤمن الإنسان بالاليوم الآخر، وما يحصل فيه مما قصه الله -عز وجل- من تغير نظام هذا الكون، وما يحصل فيه من الحساب والجزاء، وزن الأعمال، والاجتياز على الصراط، وما ذكر من الحوض والجنة والنار، كل ذلك يحصل في ذلك اليوم الآخر.

قال: ((وتومن بالقدر خيره وشره)), أي: أن الله -عز وجل- قد علم ما هو كائن، وأن الله -عز وجل- قد كتب ذلك، وأن الله -سبحانه وتعالى- يخلق مرتبة الخلق التي توجد بها الأشياء، وأن الله -عز وجل- يشاء ويريد.

فهذه أربعة مراتب لا بد من الإيمان بها فيما يتصل بالقدر: العلم الشامل المحيط، والإرادة، والمشيئة العامة، وأن الله -عز وجل- يخلق هذا المراد بحيث يقع.

والله -عز وجل- قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، وكل ذلك كتبه في اللوح المحفوظ.

^١- أخرجه أحمد (٦١٨/٣٦)، رقم: (٢٢٨٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٦/٧)، رقم: (٧٧٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٧/١).

والله -عز وجل- هو الذي لا يقع في ملكه إلا ما يريد، وهو الذي يخلق الخلق جمِيعاً، وكل ما سوى الله -عز وجل- فهو مخلوق، وليس هناك إلا خالق أو مخلوق، ويؤمن العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وإضافة إلى ما ذكرت من التقدير في الأزل، كذلك هناك تقدير آخر، وهو ما يسمى بالتقدير العمري، بحيث إن الإنسان وهو في بطن أمه يُبعث إليه الملك فينفح فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: الرزق، والأجل والعمل، شقي أم سعيد، فهذا ما يسمى بالتقدير العمري.

وهناك تقدير حولي، قال -تبارك وتعالى-: **{فيها يُفرق كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ}** [الدخان: ٤].

وهناك ما يكتب في صحف الملائكة، وهو الذي يحصل فيه التغيير والتبدل، **{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [الرعد: ٣٩]، الذي هو اللوح المحفوظ، فما في علم الله -عز وجل- لا يتغير، ولا يحصل فيه تبدل، وإنما الذي يحصل فيه التغيير والتبدل هو ما في أيدي الملائكة من الصحف، ولذلك جاء في الحديث: ((من سره أن يُبسط له في رزقه، أو يُنسأ له في أثره فليصل رحمه))^(٢)، فيكون قد كتب في الصحف التي في أيدي الملائكة أنه يعيش خمسين سنة، وعلم الله -عز وجل- في الأزل أنه يصل الرحمة، وأنه سيضاف إلى عمره بسبب ذلك هذا المقدار إلى السبعين، عشرين سنة، ثم بعد ذلك يُمحى ما في الصحف التي في أيدي الملائكة، ويضاف إليها هذا القدر الجديد، هذا هو المراد، أما ما في علم الله -عز وجل- فهو لا يتغير، ولا يتبدل، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

تؤمن بالقدر خيره وشره يعني: حلوه ومره، ومقتضى ذلك أن يرضى الإنسان ويسلم ولا يتسرّط ولا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل.

قال: ((صدقَ، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأْنَكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكُ)) وهذه هي مرتبة المراقبة التي أشرت إليها فيما سبق.

من أهل العلم من يجعل المراقبة على مرتبتين، الأولى أعلى من الثانية: أن تعبد الله كأنك تراه، أي: أن العبد يكون حضور قلبه في حال التعبد كأنما يشاهد ربه، فهذه مرتبة عالية جداً، يحصل معها الخشوع، والخصوص، والتذلل، والاستكانة، والمراقبة.

المرتبة الثانية: فإن لم تكن تراه فإنه يراك، يعني على الأقل تستحضر رقابة الله -عز وجل- عليك. ومن أهل العلم من يقول: إنها مرتبة واحدة موصوفة بما ذكر، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فاعلم أنه يراك، بمعنى ترقى إلى هذه المرتبة التي تستحضر فيها رقابة الله -عز وجل-، وأنه مطلع عليك، ومشاهد لك.

ومرتبة الإحسان أعلى من مرتبة الإسلام، ومن مرتبة الإيمان، ولا يصل إلى مرتبة الإحسان إلا الآحاد من المؤمنين، فتحتاج هذه المرتبة إلى مجاهدة، وتحتاج إلى تهذيب للنفس وإصلاح، وتحتاج إلى ترويض لها، وتعاهد للقلب.

^٢ - أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق (٧٢٨/٢)، رقم: (١٩٦١).

قال: ((فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسوؤل عنها بأعلم من المسائل)), أي: أخبرني عن وقت الساعة، والساعة هي القيامة، وقيل لها ذلك إما لعظم شأنها، فصح ذلك عند الإطلاق أن يتوجه إليها، ويمكن أن يكون ذلك لسرعة وقوعها، **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلْمَحُ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** [النحل: ٢٧]. فقيل لها الساعة، وقيل غير ذلك.

وقد سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا، يقول الله -عز وجل-: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَا هَا}** [النازurat: ٤٤-٤٥] منتهى علم الساعة إلى الله -عز وجل-: **{إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا * كَائِنُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يُبْثُوا إِلَّا عَشَيَّةً أَوْ ضَحَاهَا}** [النازurat: ٤٥-٤٦].

وجاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال له: متى الساعة؟، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ماذا أعددت لها؟^(٣).

((قال: ما المسوؤل عنها بأعلم من المسائل))، هذا يدل على أن الساعة لا يعلم بها ملك مقرب، ولانبي مرسل، أخفى الله -عز وجل- علمها عن الخلق لحكمة يعلمهها.

وفي هذا فائدة، وهي أن الإنسان إذا كان لا يعلم وسئل عن شيء فإنه يقول: لا أعلم.

وقد نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التكاليف، **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}** [ص: ٨٦]، ومن التكاليف أن يجيب الإنسان في أمور لم يتحقق منها، لم يعلمهها، وهذا أمر قرنه الله -عز وجل- بالإشراك، كما في قوله -سبارك تعالى-: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [الأعراف: ٣٣].

وقال -سبارك تعالى-: **{إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ}** [النحل: ١٠٥] وهذا من أعظم المحرمات، وفيه اجتراء على الله، وكلام أهل العلم كثير في هذا، في من سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول: لا أعلم، ومن أخطأ: لا أدرى، أصيبيت مقاتلته، ولا أدرى نصف العلم.

ومن أراد أن يطالع كلام السلف فلينظر في هذا كتاب جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر، ومقدمة الدارمي للسنن، إلى غير ذلك من ذكروا هذه القضية.

وذكر الشاطبي -رحمه الله- في كتاب المواقف نماذج كثيرة، وذكر من أحوال الإمام مالك وروایات عنه أنه ربما سئل عن أكثر من عشر مسائل، أو عشرين مسألة، يأتي الرجل من المغرب بهذه المسائل، ثم يسأل، فيقول له: لا أدرى، يقول: بماذا أرجع للناس؟ فيقول: قل لهم: مالك لا يدرى، مما ضره وهو إمام دار الهجرة، يسأل عن عشرين مسألة ولربما ما يجيب إلا مسألة أو مسائلتين والباقي يقول: لا أدرى.

فأسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، والإخلاص والسداد والهدى والرشاد، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد.

^٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله -عز وجل- (٥٨١٩)، رقم: (٢٢٨٣/٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب المرء مع من أحب (٢٠٣٢/٤)، رقم: (٢٦٣٩).